

قراءة في الجانب الثقافي والعمراني لتاهرت

من خلال كتاب ابن الصغير ق 2-3هـ / 8-9م

**A Reading in the cultural and the urban aspect of Tahert
Through Ibn al-Saghir El Maliki's book on the second and the
Third century 2-3 AH/8-9 Ad**

Kadifati7a09@gmail.com

قاضي فتحيحة*، جامعة ابن خلدون - تيارت

تاريخ الإرسال: 2021/10/26 تاريخ القبول: 2022/06/07 تاريخ النشر: 2023/01/31

الملخص باللغة العربية: إنَّ هدف البحث هو تسليط الضوء على الجانب الثقافي والعمراني لحاضرة المغرب الأوسط "تاهرت" أيام بني رستم من خلال مؤلَّف ابن الصغير المالكي؛ وهي المسألة التي تجاوزتها الدراسات المعاصرة باعتبار المؤلف وثيقة سياسية واجتماعية محضة، والمُضمَّن باسم "أخبار الأئمة الرستميين"، ترعرع هذا الأخير في كنف بني رستم وتنقل بين ربوع عاصمتهم، كما يعتبر شاهد عيان لبعض الأحداث الخاصة بالفترة الأخيرة من تاريخها وهو ما ظهر جليا في متون كتابه، وبناء على ما اشتمل عليه المؤلف اعتبرت هذه الأخيرة من الدول الحضارية آنذاك متسمة بطابع السلم مما أدى إلى شيوع خبرها في شتى أنحاء الدولة الإسلامية، هذا وقد طبعها ببصمة فكرية وثقافية وجماليات عمرانية بسيطة شدَّت النظر ولفتت الانتباه كما عبرت عن مدى التقدم والتطور الحاصل في المنطقة حتى افتكت لقب الحاضرة.

الكلمات المفتاحية: الثقافة؛ العمران؛ تاهرت؛ بنو رستم؛ ابن الصغير المالكي.

Abstract : This paper aims to shed light on the cultural and urban aspect of the city of "Tahert" in the days of Beni Rustum through the author Ibn Seghir el Maliki. This is an issue that contemporary studies have considered this source as a political and social document which is in named "Akhbar El Aima El Rustumiyin", he grew up among them and moved throughout the capital Tahert and had witnessed some of the event that he recorded in his book. The city at this time was characterized by the spread of peace that made it famous throughout the kingdom. The city was also known by its intellectual and artistic aspect and also urban architecture.

◆ المؤلف المرسل

Keywords: culture; urbanization; Tahert Banu Rustam; Ibn al-Saghir al-Maliki.

مقدمة:

يُعتبر المغرب الأوسط مسرحاً للأحداث في مختلف المجالات عبر العصور؛ وقد اتضحت معالم خارطته في العصر الوسيط ابتداءً من منتصف القرن الثاني الهجري بقيام الدولة الرستمية؛ التي كانت فاتحة لعهد جديد مُشكّلة نهضة حضارية، فجلب ذلك اهتمام العلماء والمؤرخين وأدى إلى ميلاد حركة التأليف والتدوين عن تاريخها، وتأتي في طليعتها أهمية؛ مؤلف: "أخبار الأئمة الرستميين" لابن الصغير المالكي.

وبناء على ذلك تقدمنا ببحثٍ مُعنون بـ "قراءة في الجانب الثقافي والعمراني لتاهرت من خلال كتاب ابن الصغير المالكي ق3-2/8-9م"؛ ولأنَّ جُلَّ الدراسات حولها اهتمت بالجانبين السياسي والاجتماعي على غرار الجوانب الأخرى؛ فأردنا استنطاق نصوصه وقراءة ما جاء بين سطوره فيما تعلق بالجانبين الفكري والعمراني؛ فمن يكون هذا المؤرخ وما مذهبه؟ وكيف مكّن له القلم حتى أرخ للدولة الرستمية؟ وما أهميته بالنسبة للمغرب الأوسط؟ وبم اتسمت البنية الثقافية والهيكلية العمرانية لتاهرت؟

إنَّ الهدف من دراستنا لهذا الموضوع؛ هو التعريف بالمنطقة واستعراض تاريخها، ولا سيما الأحداث التي مرت بها خلال القرون الأولى بعد الفتوحات الإسلامية وغالباً ما أهملت وتمّ تجاوزها في معظم النصوص الإخبارية، إضافة إلى بعث حب التقصي عن تاريخنا المبتور نتيجة أسباب متعددة كالحزازات والحروب الداخلية التي قضت على جل المؤلفات، فبات لزاماً علينا أن نولي أهمية خاصة بالبحث عن المصنفات المفقودة وبدراسة المادة التي لا تزال خاماً على رفوف المكتبات وإظهارها إلى الوجود والتمكين لها وفق المنهج التاريخي، هذا وقد سرنا على خطة بحث مكونة من مقدمة وعناوين رئيسية متمثلة في إبراز تاريخ تأسيس تاهرت، والتمكين لتاريخها الثقافي والعمراني، وعلى عناوين فرعية سنتطرق لها في العرض.

1- حياة ابن الصغير المالكي:

1.1- المولد والنشأة:

لم يُعرف تاريخ ولادة ابن الصغير المالكي ولا تاريخ وفاته ولا حتى الفترة التي أُلّف فيها رسالته، ولذلك سنسير على أسلوبَي الشك والإسقاط، ووفقاً لما رواه لنا عن تاريخ المدينة تاهرت خلال العهد الرستمي فإنّه يعد ابن القرن الثالث الهجري، أما عن الفترة مضبوطة فيمكن حصرها بين (270-290هـ/883-902م) أو بعدها، مما يعني أنّه

عاصر بعضا من ولاية أبي اليعقوبان في قوله: "وقد لحقت أنا ببعض أيامه وإمارته وحضرت مجلسه"¹.

وبناء على قوله فإنه يُعدّ من بين الداخلين على تاهرت وليس ابن المنطقة ودليل ذلك أيضا أنّ جملة أخبار أئمتها الأوائل استقاها عن طريق الرواية الشفوية قائلا: "أخبرني جماعة من الإباضية وغيرهم عن ولاية أبي بكر ومقتل ابن عرفة وقدم أبي اليعقوبان من العراق"²، كما صرح لنا أنه استلم كتاب مسائل نفوسة للإمام عبد الوهاب عن بعض الرستميين؛ قائلا: "فأخذته عن بعض الرستميين فدرسته ووقفت عليه"³.

أما بالنسبة لنشأته وأصله فلأسف الشديد تظل مسألة تهيمشه في مختلف الكتابات متواصلة في ظل غياب الأدلة والنصوص التاريخية عنه إلى جانب غياب التعريف بمدينة مسقط رأسه، لتبدأ الإشارة إليه منذ دخوله العاصمة تاهرت، وبحسبه أنها كانت رحلة زيارة لا استقرار إلا بعد ما شاهده من حسن معاملة ومعاشرة على حد قوله: "ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم...حتى لا ترى دارا إلا قيل هذا لفلان الكوفي..."⁴، وفيما يبدو أنّه بقي بها إلى غاية وفاته، كما أنّه أقام بها تجارة تحفظ عيشه: "إنّ لي في الرهادنة دكانا أبيع فيه وأشتري"⁵.

2.1- أهم المؤرخين المعاصرين له:

في مقدمتهم نذكر: ابن عبد الحكم (ت257هـ/870م)؛ من أشهر مؤلفاته فتوح مصر والمغرب والأندلس، ثمّ البلاذري (ت275هـ/888م)؛ في مصنفه فتوح البلدان، وفي الأخير اليعقوبي (ت284هـ/897م)، البلدان⁶.

غير أنّ لا أحد منهم احتفظ لنا ولو بفاصلة صغيرة عن حياته، علاوة على أنّهم لم يكتبوا عن الحاضرة تاهرت حينها، وما تمت كتابته تتلخص في الفتوحات الإسلامية للمنطقة بصورة عامة، باستثناء اليعقوبي الذي أوجز لنا تاريخ المنطقة في بضعة سطور⁷.

1- ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستميين، تح: إبراهيم بحاز محمد ناصر، د.ط، جمعية التراث، د.ب، د.س، ص:80.

2- نفسه، ص:61.

3- نفسه، ص وص:35، 56.

4- نفسه، ص:37.

5- نفسه، ص:84.

6- ينظر مقدمة الكتاب للباحثين بحاز إبراهيم والناصر محمد، تاريخ الأئمة، ص:5.

3.1- مذهبه:

يواصل ابن الصغير المالكي نحو طريق المبهم عن حياته دائماً؛ فهذه المرة وكالعادة لم يفصح ولو في عبارة صريحة عن المذهب الذي انتمى إليه، بالرغم من أهمية ذكر ذلك لدى جميع الخطّاطين، إلا ما لَمَحَ له عن طريق ذكره لإحدى مناظراته العلمية حول مسألة الزواج، وفيما بدا له أنّه سيُّ المذهب في قوله: "ولأنّك تعلم أنّ الله أحلّ لرسوله من النساء ومن عددتهن..."⁸، حينها ردّوا عليه قائلين: "من أين زعمت وزعم أصحابك وغيرهم من الحجازيين والعراق"⁹، كما أشار الباحث محمود إسماعيل إلى ذلك أيضاً¹⁰، إلى ميوله العلوية الشيعية في مؤلفه بتقديسه سيدنا علي [رضي الله عنه] كقوله: "ومن كنت مولاه فعلي مولاه"¹¹.

2- مؤلف أخبار الأئمة الرستميّين وأهميته بالنسبة للتأريخ لبلاد المغرب الأوسط:

1.2- منهجه في الكتابة التاريخية:

يُنمُّ مؤلّف "أخبار الأئمة الرستميّين" عن مدى طول باع ابن الصغير في مجال التأريخ، فقد احتفظ لنا بجملة أخبار العاصمة تاهرت حاضرة المغرب الأوسط عهد بني رستم، كما أنّه غطّى الفترة بأكملها وشملها من مختلف جوانبها الحضارية، من حيث موقعها الاستراتيجي وذكر محاسنها، وعن سيرة الأحداث والوقائع السياسية والاجتماعية

7- لم يتعدّ وصف المدينة تاهرت لدى اليعقوبي ستة أسطر وكل ما جاء عنها يخص جملة رؤوس الإباضية، بالرغم من ارتقائها لمصاف الحواضر ثقافياً وفي سائر المجالات الأخرى علاوة على مميزاتها ومحاسنها التي جلبت مختلف جغرافي العصر أو بعده، ولا نعرف سبب ذلك كما أنّه اهتم بذكر المسالك التي تصل بينها وبين المدن الأخرى. ينظر: أحمد بن أبي الوضاح اليعقوبي، البلدان، د.ط، مطبعة ليدن، د.ب، 1890، ص ص وص: 143-144، 147.

8- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 103.

9- نفسه، ص ص: 102-103.

10- أكد الباحث محمود إسماعيل سنية بن الصغير في مقدمة كتابه "الخوارج في بلاد المغرب"، قائلاً: "وكونه سنياً مالكياً فقد كشف لنا عن كثير من أسرار عصره، ومن الانصاف أن نذكر أنه كان موضوعاً كما أنه سجل اعجابه بسيرة الأئمة الرستميّين ولم يثنه خلافاً للمذهبي عن الإشادة بهم" -بتصرف-. ينظر: محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، د.ط، دار الثقافة، المغرب، 1985، ص ص: 8-9.

11- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 28.

والعمرانية علاوة على تسجيله للمناظرات الواقعة بين مشايخها من الإباضية وغيرهم من مشايخ التيارات والمذاهب الأخرى وعلى رأسها المعتزلة¹².

ولذلك يمكن الختم حول المؤلف بأنه يعتبر من أهم وأبرز وأقدم الوثائق التاريخية التي حاكت تاريخ الإباضية في المنطقة وانفردت ببعض من أخبارها على غرار المؤلفات الإباضية والسنيّة الأخرى، وندعم رأينا بما تَمَّت الشهادة حوله من قبل الباحثين في أنه يحتل مكانة هامة ومنفردة بين المؤرخين فيما كتبه عن الدولة الرستمية¹³، أمّا عن المنهج المتبع في مؤلفه فقد اعتمد على منهجين أساسيين:

- الرواية الشفوية: وهي التي تبدو واضحة في عدة نصوص وتخص جملة الأحداث الواقعة بين ولايتي الإمام عبد الرحمن والإمام عبد الوهاب وأفلح؛ أي التاريخ الذي سبق فترة انتقاله للعاصمة تاهرت وصولاً إلى إمامة أبي اليقظان، غلب عليها الطابع السردى الحكواتي بالعبارات التالية: "أخبرني، حدثني، قال لي"، ناقلاً متونها من المتحدثين والرواة من الإباضية والعجم وغيرهم في قوله: "قال لي جماعة ممن شافهني من الإباضية وكلمني"¹⁴، وقد أفصح عن ذلك بصريح العبارة قائلاً: "وكانت لهم قصص حكوها"¹⁵.

- المشاهدة والمعينة: يُعدّ ابن الصغير المالكي شاهد عيان عن بعض الوقائع التاريخية الملازمة للفترة الأخيرة من عمر الدولة الرستمية ويبدو ذلك جلياً من خلال مؤلفه بقوله مثلاً: "رأيت، شهدته، حضرت مجلسه، قلت له"¹⁶، علاوة على أنه شارك في بعض الوقائع: "وقد لحقت أنا ببعض أيامه وإمارته وحضرت مجلسه"¹⁷، إلى جانب حسّه القويّ

12- المعتزلة: من أهم الفرق الكلامية الرائدة في المجال الفكري في تاريخ الحضارة الإسلامية، سجلت أول ظهور لها في المشرق ثم انتقلت صوب المغرب، وسميت كذلك لعدة اعتبارات لا نود الخوض فيها، شاع عليها أن لها أفكار وعقائد خاصة بها، من بين إضافاتهم في مجال العلوم إدخالهم علم الكلام. للمطالعة أكثر ينظر: محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، ط2، دار الشروق، مصر، 1418.

13- وداد القاضي، "ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية"، مجلة الأصالة، مجلة علمية محكمة تصدر عن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر، ع:45، 1975، ص ص:37-39.

14- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص:79.

15- نفسه، ص ص:27-28.

16- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص ص:80-82، 83.

17- نفسه، ص:80.

في النقد والتوجيه¹⁸؛ كقوله: "وكانت له قصص حكوها لا يمكن ذكرها إلا على وجه، وأن أتم الصدق فيها ولا أحرفها على معانيها"¹⁹.

اتضح لنا أنه تحرى الموضوعية إلى حد بعيد عكس ما كانت عليه مصادر إباضية عصره، ضف إلى ذلك أن نزعتة السنيّة وانتفاءه المذهبي لم يمنعه من نقل الأحداث كما هي مع مراعاته الصدق في نقل المعلومة دون زيادة أو نقصان لا وبل أشار إلى ذلك في مؤلفه أيضاً: "إنّ النقص في الخبر أو الزيادة فيه ليس من شيم المروءات ولا من أخلاق ذوي الديانات"²⁰، وإن دُل هذا على أمر إثمها يدل على مدى صدقه وأمانته في النقل الحرفي وباللسان الذي روى له، ولو نتمعن قليلاً في نصوصه لوجدناه يجمع بين اللسان العربي الفح والبسيط الدارج ممن قدموا له جملة الأخبار.

خلاصة القول تعكس شيئاً هاماً وهو أنّ المؤلّف يُعتبر سجلاً نشطاً يُعبّر عن الحياة السياسية بالدرجة الأولى، والبعض من أخبارها في المجالات الحضارية الأخرى ناهيك عن مجموعة النقاشات والمساجلات بين الطوائف المذهبية التي نفقدها عند غيره، وما يعاب عليه أنّه لم يوثق معلوماته بالتواريخ عدا في مناسبة واحدة أو اثنتين فقط، إلى جانب استرساله في الحديث حتى أخذت بعض النصوص الطابع القصصي.

2.2-المخطوط:

يُعد مصدراً تاريخياً هاماً بالنسبة لتاريخ منطقتنا الجغرافية وحركتها السياسية والمذهبية، كما أنّه لسانها الوحيد في تلك الفترة وعُثُون بـ "أخبار الأئمة الرستميّين"، كان المخطوط مفقوداً²¹، إلى أن تمّ العثور عليه مطلع القرن العشرين من قبل المستشرق "موتيلانيسكي" في "وادي ميزاب"، إلّا أنّ الأمر لا يمكن الافتخار به على حسب ما جاء في تعليق الباحثين حينها قالاً بأننا نساهم سوية في ضياع تاريخنا بأيدينا وخاصة عندما يتعلق الأمر بتاريخ أول دولة مستقلة ببلادنا لنجعل المستشرقين يحتكرونه لأنفسهم.

3.2-جهود المدارس البحثية في تحقيق وطبع الكتاب:

أ- المدرسة الاستشراقية-فرنسا:- بها أنّ الفرنسيين هم أول من تحصل على المخطوط، طبعوه ضمن أعمال مؤتمر المستشرقين الرابع عشر الذي انعقد بالجزائر سنة 1905م في

18- القاضي وداد، ابن الصغير المالكي، ص ص: 45-46.

19- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 27.

20- نفسه، ص ص: 27-28.

21- نفسه، ص: 5.

المجلة الإفريقية، وظل الباحثون يرجعون إليه في الدراسات المتعلقة بتاريخ بني رستم في الجزائر طيلة الفترة المذكورة إلى غاية 1976م، ومع ذلك صُغبت المهام في الوصول إليه مع إحداث تشويهاً في النص الأصلي، وقد أخرجه المستشرق في كذا من تسمية: "تاريخ ابن الصغير"²²، وباسم "سيرة الأئمة الرستميين"، والفرنسية بـ:

Chronique d'Ibn Saghira sur les Imams Rostimides des Tahert.²³

ب- جهود العرب:

- تونس: حمل الباحثون التونسيون بعد هذه الدراسة على عاتقهم البحث عن المؤلف مع غايتهم في إبراز نصه الأصلي دون إحداث تغييرات، وقد تمّ لهم ذلك بنشره في مجلة العلوم الإنسانية لكلية الآداب بتونس في المجلة المعروفة بـ "كراسات تونسية"، ل يتم الاعتماد على النص الجديد بداية من سنة 1976م، وقاموا بكتابة تعليق في بدايته كالتالي: "إننا توخينا الزيادة فيه وطبعناه على منحنى ما درسه موتيلانسكي لكن يراجع نصه الأصلي فقط"²⁴، لتوقظ جهود الإخوان التونسيين سبات الباحثين الجزائريين وبث الصحوه فيهم بالاهتمام بتاريخ منطقتهم فهم الأولى والأسبق من غيرهم.

- الجزائر: تحت شعار التاريخ تاريخنا والهوية هويتنا وجب علينا البحث والتقصي في سير أخبار أسلافنا، فحمل الباحثان بحاز إبراهيم ومحمد ناصر مسؤولية ذلك وبذلا قصارى جهديهما بإخراجه في نسخة سليمة متوخين إرفاق كل سند بدليل من مصادر أخرى تؤكد المعلومة أو تنفيها مع التوفيق بين الآراء، بعنوان: "أخبار الأئمة الرستميين"، أمّا عن تاريخ التحقيق فقد كان في 1405هـ/ 1985م، بالجزائر العاصمة، ويحتوي الكتاب على 116 صفحة إلى جانب قائمة الفهارس.

3- تاهرت؛ الموقع والتأسيس:

حينما يتعلق الحديث عن الدولة الرستمية فإنّ تاهرت هي بيت القصيد، إذ تُعد

22- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 5-6.

23- محمود اسماعيل، الخوارج، ص: 68.

24- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 7.

أول مشروع سياسي أُقيم في المنطقة، بُنيت على يد عبد الرحمن بن رستم؛ وجاءت فكرة بنائها بعد أن كثر أتباعه وضاق بهم جبل نفوسة²⁵، فبات من الضروري بناء مدينة تحويهم وتحوي مذهبهم، فخرجت منهم جماعة تتحين موقعا صالحا لتجسيد مشروعهم.

وبالتالي فإنَّ اختيارهم لهذا الموقع الاستراتيجي الهام جاء وليد الظروف المحيطة بهم، فمن الناحية الجغرافية والجيولوجية فهي تقع بين التل والصحراء مما تساعدهم على العيش برخاء حيث توفر الماء والتربة الصالحة لممارسة أي نشاط فلاحى، ومن الناحية السياسية والعسكرية فهي بعيدة عن أعين أعدائهم من بني العباس وعن ضرباتهم أيضا.

أما عن تاريخ بنائها فوقع حوله تضارب كبير بين الروايات التاريخية، فابن خلدون يجعلها في سنة 140هـ/712م؛ قائلا: "حينما وطئت قدما ابن رستم تيهت فارا من جموع بني العباس في 140هـ"²⁶؛ إلا أنَّ الحقيقة تشير إلى عكس ذلك، بحيث أنَّ التاريخ الذي أشار له ابن خلدون بعيد جدا عن الواقع؛ بحيث أنَّ عبد الرحمن بن رستم لم يزل حينها في حالة فرار تارة وفي قتال جند بني العباس تارة أخرى، مما يعني أنَّ هذا التاريخ يحول بينه وبين تأسيسها أو دخولها أصلا.

أما ابن الصغير فيجعل من سنة 144هـ/761م²⁷ التاريخ الفعلي لبنائها، وبعد قراءة وتمحيص الروايات تبين لنا أنَّه النص الأقرب إلى الصحة، فبعد المعركة التي جمعتها بجند بني العباس؛ فرَّ من هناك ودخل المنطقة من نفس السنة، إلاَّ أنَّه ومن غير المعقول أن يباشر عملية بنائها واتمامها في سنة واحدة، ولربما هي الفترة التي ظلَّ فيها ابن رستم يترصد مكائد العدو ويخشى مدامته من جهة وفي التفكير بإنشاء مدينة تحويهم من جهة أخرى، ولذلك يمكننا تمديد الفترة الزمنية لغاية 160 أو 161هـ/776-777م²⁸؛

25- جبل نفوسة: بين طرابلس على بعد ثلاثة أيام وإفريقية على بعد ثلاثة أميال، وطول مسيرته ستة أيام، فُتح على يد ابن العاص، وأهله فسيفساء من المذاهب على طريقة الشراة والوهبية والإباضية.

ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج:5، د.ط، دار صادر، بيروت، 1977، ص:296-297.
26- عبد الرحمن بن خلدون، المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج:6، مر: سهيل زكار، ط1، دار الفكر، بيروت، 2001، ص:65.

27- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص:19.

28- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج:1، تح: ج س كولان وليفي بروفنصال، ط:3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص:196-197.

وهي المدة²⁹ التي اكتمل فيها البناء وتلاحقت فيها جموع الإباضية صوب تاهرت ومن ثمة الإعلان عن قيام حكم رستمي مستقل لأول مرة في تاريخ الغرب الإسلامي.

بعد بناء تاهرت اتخذها ابن رستم عاصمة له ومكانا ليباشر مهام الحكم ومكانا آمنا لهم ولمذهبهم، وقد استطاع خلق حالة من الاستقرار في دولته الناشئة منذ بدايتها فدخلها الناس من كل جهات العالم الإسلامي، كما قصدها العلماء والتجار والكتّاب ورجال الصناعة وأرباب الفن والحرف، بعد استقرار أمورها مما أدى إلى ازدهارها وتقدمها.

4- الحياة الثقافية بتاهرت من خلال مؤلف ابن الصغير الهالكي: شهدت تاهرت حركة ثقافية كبرى في مختلف العلوم، حتى عُدت حاضرة علمية قصدها العلماء وتردد عليها العام والخاص للاستفادة من بحر علومها، لتفتك لقب الحاضرة، وذلك للأسباب التالية:

- دور الأئمة: لقد كان للأئمة دور فعال في ازدهار الحركة الثقافية بالمنطقة، إذ كرسوا حياتهم لها وصبوا جل اهتمامهم بها في سبيل تنشيطها، إذ تشير كتب الطبقات والتراجم إلى عدد غير قليل منهم أسهموا في تأكيد وتثبيت دعائم القاعدة الثقافية، حتى سار الأبناء والأحفاد على نهجهم³⁰، وإنّ اللافت للنظر أنّ العلم لم يبق حكرا على البيت الرستمي كما نجده في بعض الولايات السياسية المجاورة؛ بل شمل مختلف طبقات وشرائح المجتمع وانتشر في أواسط العبيد والإماء أيضا³¹، حتى أصبحت تاهرت مركزا للإشعاع الثقافي معادلة لحاضرة القيروان³² السبّاقة في ميدان الثقافة والعلوم.

ولم تتوقف أدوارهم عن ذلك الحد بل أشرف بعضهم على سير الدروس والقيام بأحوال الطلبة أيضا؛ ولا غرابة في ذلك كون أنّ انطلاقتهم الأولى كانت علمية، إلى جانب أنّه من بين شروط اختيار الإمام أن يكون عالما ورعا وبحرا من بحور الثقافة والدين؛ فالإمام عبد الوهاب مثلا كان كثير التبرع بالمال من أجل شراء نفائس الكتب وركنها

29- لا يمكن تفسير طول المدة إلا بما ذكره البكري ولو أنها من الروايات الخيالية المنتشرة آنذاك؛ قائلا: "ويقال إنهم لما أرادوا بناء تيهرت، كانوا يبنون النهار، وإذا جنّ الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدّم، فبنوا حينئذ تيهرت السفلى وهي الحديثة". ينظر: أبي عبيد الله البكري، المسالك والممالك، ج:2، تح: جمال طلبة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص:249.

30- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص وص:28، 36.

31- محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير. ج:3، ط، د.د، د.ب، 2010، ص:327.

32- القيروان: قاعدة بلاد إفريقية وأم مدائنها، بنيت على يد عقبة بن نافع في 47هـ/668م، وهي أعظم مدن المغرب نظرا وأيسرها أموالا وأكثرها بشرا، ومركزا من مراكز الإشعاع الثقافي، ينظر: البكري، المسالك والممالك، ج:2، ص:197.

بالمكتبة مما يدل على ولعه الشديد بها، علاوة على طول باعه في حقل التأليف³³، وقد احتفظ لنا ابن الصغير بإحداها والمسماة بـ "مسائل نفوسة الجبل"³⁴، عبارة عن مصنف فقهي أجاب فيه عن كل مسألة طرحها عليه أهل نفوسة، ظلّ متداولاً بينهم قرناً بعد قرن.

وقد فاق ولع الإمام أفلح بالعلوم جميع الأئمة، حتى أُعتبر عصره من أزهى الفترات التاريخية في حياة الدولة الرستمية وظلّ مثلاً يحتذى به طيلة العصر الوسيط؛ وإنّ طول صموده في هذا المجال عكس لنا صورة المجتمع الرستمي المثقف، بسبب حرصه الدائم على تعليم رعيته وأعطى للعلم وذويه منزلة عظيمة³⁵، حتى أنه ألف قصيدة شعرية تربو عن المائة بيت يحثّ الناس فيها على طلب العلم قائلاً:

يُربِكُ أشْخاصَهُم رَوْحاً وَاِبْكاراً	الْعِلْمُ أَبْقَى لِأَهْلِ الْعِلْمِ آثاراً
ما مات عبد قضى من ذاك أوطاراً	حي وان مات ذو علم ذو ورع
كَمِيت قَدْ ثَوَى فِي الرَّمْسِ إغْصاراً	وذو حَيَاةٍ عَلَى الْجَهْلِ وَمَنْقَصُهُ

أما عن فضل العلماء ومنزلتهم فيقول:

طَالِبَ عِلْمٍ بَـاتَ لَيْلَتَهُ	فِي الْعِلْمِ أَغْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ أخطاراً
اشْدَدَ إِلَى الْعِلْمِ رَجُلًا فَوْقَ رَاحِلَةٍ	وَصَلَ إِلَى الْعِلْمِ فِي الْفَاقِ أسْفاراً
فَاصْبِرْ عَلَى دُلْجِ الْأَغْسَاقِ مُعْتَسِفاً	مَهْـمَـةِ الْأَرْضِ أَحْزَاناً وَأَقْطَاراً

جاعلاً نزلهم أكرم النزل داخل العاصمة تاهرت؛ بقوله:

حَتَّى نَسْـُورَ رَجَالاً فِي رِحَالِهِمْ	فَضْلاً فَأَكْرِمَ أَهْلَ الْعِلْمِ رُؤَاراً
وَالطُّفْ بَيْنَ أَنْتَ مِنْهُ الْعِلْمُ مُقْتَبَسٌ	جَدِيدٌ لَهُ كُلُّ يَوْمٍ مِنْكَ إِبْرَاراً ³⁶

ولو نواصل في تتبع سير الأئمة وأخبارهم لنجد أنّ لكل منهم مجال اهتمام؛ كالإمام أبي بكر الذي كان منفتحاً على كل العلوم؛ وهو الأمر الذي جعله يخرج عن سكة أجداده فمعرفة لم تكن دينية بحتة مثلهم، فقد برع في حقول عدة ولا سيما الشعر الماجن حتى مال عن الطريق الصحيح؛ وهي المسألة التي كشفها ابن الصغير: "...ويشاعره على مروءاتهم ويحب الآداب والأشعار وأخبار الماضين... وكان يحب اللذات

33- سليمان باشا الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضي، د.م، ص ص: 86-89.

34- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 39.

35- نفسه، ص: 49.

36- محمد دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ص: 335.

ويميل إلى الشهوات"³⁷، كما استأنس بالتاريخ علاوة مقالاته التي رد بها على جميع الفرق³⁸.

كما لا يمكننا أن ننسى الإمام أبا اليقظان وهو لب موضوعنا حيث شهد له ابن الصغير المالكي برصيده العلمي وفلاحه كما قال بأنه حضر مجالسه وسمع عن وعظه للرعية مما يعني أنه تتلمذ على يده قائلاً: "...وحضرت مجلسه وقد جلس للناس خارج المسجد الجامع... ورأيت يومًا ثانياً في مصلى الجنائز... وكان ورعاً زاهداً ناسكاً سكيناً"³⁹.

- دور الرحلات العلمية: إنَّ أول مثال نضربه في هذا المجال هم الإباضيون الستة المعروفون بطلبة حملة العلم ويعدون اللبنة الأولى في نقل العلوم وتثبيتها من المشرق إلى المغرب؛ أبرزهم: أبو الخطاب الأعلى بن سمع المعافري وعبد الرحمن بن رستم⁴⁰ وأبو داود القبلي وعاصم السدراتي وإسماعيل بن درار الغدماسي والربيع بن الحبيب⁴¹.

كما سُجلت لهم نجاحات أخرى بتجسيدهم للمشروع السياسي بتاهت علاوة على أنهم ظلوا بمثابة المرجعية الفقهية لها؛ فعبد الرحمن مثلاً بذل قصارى جهده في المحافظة على رسالة أصحابه وتبليغها لأتباعه بالرغم من انشغالاته السياسية والإدارية ومع ذلك حرص على تعليم الفقه الإباضي وقواعده لرعيته هذا إلى جانب تأليفه لكتاب في التفسير تنافست كل من الإباضية والوهبية⁴² والنكارية⁴³ على اقتنائه، دون أن ننسى المؤلف الذي جمع فيه بين خطبه التي كان يلقيها في المجالس العلمية وبين الفقه والدين والثقافة، إلى جانب اضطلاعاه في علوم الدين واللغة والفلك⁴⁴.

37- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 62.

38- فاطمة مطهري، "دور أئمة تيهت الرسمية في تشجيع وتطوير الحركة الفكرية خاصة العلوم الدينية"، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز الحكمة، م: 1، ع: 1، 2013، ص: 111.

39- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 80-81.

40- نفسه، ص: 26.

41- الشماخي، السير، ص: 124-126.

42- الوهبية: نسبة للإمام عبد الوهاب، ظهرت التسمية والفرقة بعد تولي هذا الأخير الحكم، فترقت الرعية إلى مؤيد لإمامته ومخالف لها. ينظر: ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 37-39.

43- النكارية: نسبة إلى يزيد بن فندين النكاري، وهي الفرقة الثانية انسلخت عن جسم الإباضية الأم الراضة لإمامة عبد الوهاب جرت بين الفرقتين حروب دامية. ينظر: نفسه، ص: 38.

44- نفسه، ص: 108.

تواصلت عملية الاهتمام بالجانب التعليمي للأئمة بني رستم حيث سَهلوا مهام التنقل والسفر في سبيل طلب العلم؛ فَظَّل الطلبة في رحلتي ذهاب وإياب طيلة هذه الفترة، ولطيبة وحسن علاقاتهم مع غيرهم سهلت لهم مسألة الاحتكاك بالمراكز والحواسر العلمية والثقافية في مختلف بقاع العالم الإسلامي، وقد كانت الرحلات متبادلة بين تلك الأطراف فمنهم من دخلها في رحلة علمية و للجوِّ الاجتماعي الذي وجده بها فضل الاستقرار وعدم العودة⁴⁵، حتى غدت تاهرت حاضرة جامعة لمختلف التوجهات والمذاهب ولقبت بـ"عراق المغرب" وفي رواية للمقدسي بـ"بلخ المغرب"⁴⁶.

وبالنسبة لرحلاتهم نحو المشرق فقد كانت كالاتجاه لبؤرة الإباضية أولا ولتأدية مناسك الحج ثانيا وللإستزادة العلمية ثالثا؛ مما يعني أنها كانت ذات جانب تعدي وعلمي⁴⁷، كما لا يمكننا إغفال جوانب أخرى ساهمت في إثراء الحركة العلمية بالمنطقة إلا أنَّ مؤلف ابن الصغير لم يشتمل عليها.

أما عن مظاهر الجانب الثقافي؛ نذكر:

- المساجد والكتاتيب: تُعد تاهرت اللبنة الأولى في تبنيتها للحركة العلمية بالنسبة للمغرب الأوسط بعدما كان الأمر مقتصرًا على القيروان فقط، وبما أنها أولى العواصم المستقلة عن الخلافة بالمشرق ومن بواكر المراكز الحضارية في الغرب الإسلامي ككل، سارعت لبناء المساجد واتخاذها مؤسسات تشغل كافة المهام السياسية والدينية وحتى الثقافية والتعليمية والدليل على ذلك أنَّ ابن الصغير⁴⁸ ذكرها في مؤلفه أكثر من خمس مرات، كما استُقبل في رحابه العلماء المحليين والزوار.

وبحسب إسقاطاتنا المعرفية فإنَّ استمرار انتشار الكتاتيب في المغرب الإسلامي رافق العصر الوسيط برمته، ومما لا شك فيه هو أنه أخذ كمؤسسة تعليمية في هذا العصر أيضا، إلى جانب الحجرات التعليمية التي خصصها بعض المتطوعين في بيوتهم بسبب الإقبال الكبير على التعلم بالرغم من أنها تبقى مجرد عمران غير رسمي للتعليم ومع ذلك قصده الطلبة بشكل مستمر للتزود بالعلم.

45- في هذا الصدد يقول ابن الصغير: "وأنتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى أظهرهم" ينظر: ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص:31.

46- محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، د.ط، مطبعة بريل، ليدن، 1877، ص:229.

47- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص وص:77، 89.

48- راجع مؤلف أخبار الأئمة الرستميين.

وفي خضم البحث عن أسماء المؤسسات التعليمية لاحظنا استعمال مصطلح "المدرسة" هذه الفترة؛ وأن تاهرت كانت عامرة بالمدارس التي أُديرت بشكل منتظم وفق هيكلية واضحة المعالم كالمدرسة الابتدائية، إلى جانب مصطلحي الجامعة والثانوية التي تعني بتدريس الكبار⁴⁹، إلا أن هذا الأمر لم يرد ولا في نص تاريخي ولا حتى عند ابن الصغير شاهد العيان ولو كان كذلك لصرح بالأمر؛ فظهور مصطلح المدرسة بمؤسساته لم يتجسد على أرض الواقع إلا مع بني زيان نهاية العصر الوسيط تقريبا.

- المكتبات: تعتبر الوجه الثقافي لأي حاضرة ثقافية كونها تقوم بدور ريادي يعكس الوجه النير لها؛ وقد رُبِطت تاهرت بمكتبة المعصومة التي حوت أكثر من ثلاثمائة ألف مجلد في مختلف العلوم، حدّدت المصادر الجغرافية حيثياتها فقالت أنها عبارة عن قسبة مشرفة على السوق تمتاز بالحصانة غير أننا نفتقد تاريخ التأسيس⁵⁰، أحرقها العبيديون فضاع إرث المنطقة الثقافي والفكري⁵¹، ودليل ذلك أن ابن الصغير ذكر عددا من المقالات الفردية والجماعية الناتجة عن المناظرات العلمية في كذا من موضع⁵² إلا أنها لم تصل إلينا والأكد أن السبب يرجع إلى ذات المسألة.

أما عن أشهر العلوم المطروحة في تعليمهم نجد العلوم الدينية ولا سيما الفقه الذي يعتبر جزءا مهما فيها يتناول الأمور الدينية والدنيوية؛ ويُعد مؤلف الإمام عبد الوهاب حول مسائل نفوسة التي تربو عن 300 سؤال⁵³ من بين أهم المصنفات المُدرسة في هذا المجال⁵⁴، إضافة إلى جوابات الإمام أفلح وهو مصنف يحتوي إجابات عن المسائل الفقهية المتعلقة بالعبادات والمعاملات وغيرها.

لم يقتصر التأليف الفقهي على الأئمة ورجال الدولة الإباضية فقط بل سعت كل الأطراف إلى التأليف والنبوغ فيه ولا سيما الفقهاء مما أدى إلى وفرة وغزارة التأليف وكثرة المدونات حوله، وهي المسألة ذاتها التي تحدث عنها ابن الصغير: "ومن البلد من فقهاء الإباضية وغيرهم من الكوفيين والمدنيين لم يطلب بعضهم بعضا... واشتهت كل فرقة أن

49- محمد دبوز، التاريخ الكبير، ص: 359.

50- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص: 8-9.

51- لسان الدين بن الخطيب، رقم الحل في نظم الدول، د.ط، المطبعة العمومية، تونس، 1987، ص: 34.

52- ابن الصغير، تاريخ الأئمة، ص: 81.

53- نفسه، ص: 97.

54- نفسه، ص: 37.

تعلم ما خالفها فيها صاحبها⁵⁵، كما كثرت المناظرات⁵⁶ حول أبسط مسائله في أجواء سمحة وسلمية مع اجتهادهم في تصحيح الأخطاء اللغوية والنحوية كالمرة التي أخطأ فيها ابن صغير في القراءة قائلا: "ويربأ بأبي عبيدة عن الزلة" فصُحح له الخطأ وقيل: "يربأ بأبي عبيدة بهمزة الألف وضمه"⁵⁷، فاهتمامهم لم يقتصر على الفقه وحده بل باللغة والنحو والوثائق والكلام أيضا.

أما عن أبرز الأسماء التي اشتغلت بهذا المجال واحتفظ لنا ابن الصغير بالقليل النادر منهم كأبي عبيدة الأعرج⁵⁸ وعبد العزيز بن الأوز⁵⁹ ومحمد بن عبد الله بن أبي الشيخ⁶⁰، إضافة إلى عيسى بن فرناس⁶¹ إلى جانب الفقيه محكم الهواري⁶².

أما عن الحديث فقد تمت روايته عن شيوخ ببلاد المشرق، إلا أنَّ سعة الاهتمام به كانت أقل شأنًا من الفقه وغيره، بالرغم من اعتماده كمادة أساسية في التدريس، حتى أنَّ ابن الصغير لم يحتفظ لنا بأسماء هؤلاء إلا في القليل النادر كأبي عبيدة المذكور سابقا الذي اشتهر في الفقه والحديث وقرأ كتاب ابن قتيبة⁶³، وفيما يخص علم القراءات فقد نال شهرة واسعة من حيث ترتيل وتجويد القرآن الكريم وإلقاء الخطب حسب شهادة ابن

55- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 92 وما بعدها.
56- كثيرا ما أشار ابن الصغير إلى المناظرات والمجالس العلمية بين مختلف التيارات وفي شتى المواضيع كقوله: "اجتمعت المعتزلة والإباضية بنهر مينة لموعده جعلوه فيما بينهم مناظرة". ينظر: نفسه، ص و ص: 82، 92-95.

57- نفسه، ص: 84.
58- أبو عبيدة الأعرج: عاصر إمامة أبو اليقظان وكان عالما بالفقه والكلام والبلاغة والنحو واللغة، يُعد بمثابة المرجعية الفقهية لمن ظلَّ في دنياه قائلا: "كلهم مُقرنون له بالفضل معترفون له بالعلم مسلمون له في الورع، وإذا اختلفوا في أمر ما ردوه إليه"؛ حتى أصبح العلامة في هذا المجال وقصده القريب والبعيد: "وكان المغرب كله مفتونا به حتى أنهم بعثوا بركاتهم له". ينظر: نفسه، ص: 83-85.

59- عبد العزيز بن الأوز: شهد إمامة أفلح وأبي اليقظان، إلا أنه كان أقل قدرا من أبي عبيدة حيث لم تأخذ القبائل بمقالاته بالرغم من اجتهاده في الفقه والكلام. ينظر: نفسه، ص: 61-62.
60- محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ: شيخ عُرف بورعه وعلمه ودينه؛ ولاة الإمام أبو حاتم قضاء تاهرت وبيت مالها. ينظر: نفسه، ص: 101.

61- عيسى بن فرناس: كان بمثابة الذراع الأيمن للإمام أبي اليقظان حيث قضى عليه مسائله وأفتاه في كذا من مسألة اتصف بالورع ووجه لمذهبه. ينظر: نفسه، ص: 81.

62- محكم الهواري: عُرف بورعه وتقاه وفلاحه؛ ولاة الإمام أفلح قاضيا في دين ودنيا تاهرت أحبه الناس ورضوه لأخلاقه الدمة وحكمه العادل. ينظر: نفسه، ص: 49 الشماخي، السير، ص: 381.

63- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 84.

الصغير: "حضرت لهم خطباء كثيرة"⁶⁴، وعن الترتيل يقول: "فسمعت أحمد التيه يقرأ بعد فراغ إلى أن بلغ: "تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى" فحرف المعنى عن موضعه وأراد أن يقيم أصله وجعله باب من الحلول على العرش"⁶⁵.

أما العلوم الثقيلة فلم يتطرق لها المؤلف ولو في مناسبة واحدة وحقيقة نحن نجهل سبب ذلك بخلاف أننا لو قرأ في مؤلفات أخرى سنجد أن التاهرتيين أقبلوا على دراستها بشدة حتى أنهم جعلوها كمواضع أساسية في التدريس، على غرار الأدب الذي تم ذكره دون التعمق فيه.

5- الهيكلة العمرانية لتاهرت:

اهتم أئمة بني رستم رفقة رعيته بالطابع المعماري والعمراني ليعطوا بصمة جمالية وحضارية تدل على بساطة مذهبهم وتواضعهم وعن مدى تعلقهم بآخرتهم على دنياهم وهي المسألة الواضحة في مؤلف "أخبار الأئمة"، وكانت انطلاقتهم نحو ذلك منذ تأسيس الدولة واستتباب أمنها وتضخم رؤوس أموالها؛ حيث قال ابن الصغير: "وأنه لما وصل المال واشتروا للقوم الكراع والسلاح وقوي الضعيف وانتعش الفقير حسنت أحوالهم...ثم شرعوا في العمارة والبناء..."⁶⁶، فلم تكن تاهرت تملك من العمارة الكثير إلا بمجيء بني رستم؛ ومن بين المنشآت نذكر:

- المساجد: باشر الأئمة الرستميون بناءها في وقت مبكر جدا؛ فعلى حد قول البكري باشروها منذ لحظة مبايعة عبد الرحمن⁶⁷، واتخذوها دارا للصلاة كالمسجد الأعظم فقد وردت لفظته عند ابن الصغير في كذا موضع، علاوة على اتخاذه مقرا للحكم ومستقرا لحل جميع مسائلهم وانشغالاتهم كما استقبلوا فيه ضيوفهم كما اقترن ذكره أيضا بالإشارة إلى المناظرات العلمية بين مختلف التيارات الفكرية والمذهبية، أما المساجد الأخرى فقد كانت منتشرة في مختلف مدن تاهرت عُرفت بالمساجد الصغرى، وفيما يبدو من خلال الإشارات الواردة في نصوصه أن لكل طائفة مسجدا خاصا بها: "وهذا مسجد القرويين

64- للعودة إلى قراءة الخطبة ينظر: ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 105-106.

65- ذكر ابن الصغير عددا منهم في قوله: "أولهم ابن أبي دريس، والثاني أحمد التيه والثالث أبو العباس بن فتحون، والرابع عثمان بن الصفار والخامس أحمد المنصور". ينظر: نفسه، ص: 105.

66- نفسه، ص: 31.

67- البكري، المسالك الممالك، ج: 2، ص: 249.

ورحبهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين⁶⁸، ولا غرابة في ذلك فالمعروف عن تاريخ الرستميين أنهم تحلوا بالتسامح الديني المذهبي إلى حد بعيد.

أما عن مواد بناء تلك المساجد والجوامع فقد كانت متنوعة فمنها ما بني بالحجارة⁶⁹، ومنها ما بني بالألواح الخشبية⁷⁰، أما عن مكانها فغالبا ما كانت تقع بمحاذاة الأسواق، أو بجوار الأبواب الأربعة للمدينة.

- القصور: تعتبر القصور الظاهرة الجمالية التي تعبر عن المستوى الحضاري الذي تبلغه أي منطقة، أما تاهرت فقد عرفت هذا النوع العمراني في زمن مبكر من عمر الدولة الرستمية وذلك راجع إلى حالة الاستقرار والرخاء الاقتصادي وتراكم رؤوس الأموال لديها؛ ففي عهد الإمامين عبد الرحمن وأفلح بن عبد الوهاب صار الناس يتنافسون في البناء⁷¹، كما كان لكل إمام قصر خاص كالإمام أفلح الذي وقف عليه وزينه واتخذ أبوابه من الحديد⁷²، إلى جانب قصري الإمامين أبي بكر وأبي اليقظان، أما بالنسبة لموقعها فأغلبها ما بني بقرب البساتين وعلى ضفاف الأنهار ليزيدها جمالا ورونقا⁷³.

إنَّ الأمر اللافت للنظر في مسألة بناء القصور أنها لم تقتصر على العاصمة تاهرت بل كانت تبنى خارجها أيضا، كما أنها لم تكن حكرا على الأئمة وبطانة الدولة فحسب فقد ذكرت بعض النصوص التاريخية أنَّها عمت سائر شرائح المجتمع على اختلاف أجناسهم، ولا سيما العجم الذين تكدست لديهم الأموال كقصري إبان وحمويه بإملاق وحسب رواية ابن الصغير أنَّ قصريهما كانا متلاصقين جاعلين جدرانهما من اللون الأحمر والأصفر⁷⁴، ومن القصور ما حملت أسماء أصحابها كقصر عبد الواحد⁷⁵، إضافة إلى القصور التي بنتها

68- البكري، المسالك الممالك، ج: 2، ص: 32.

69- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 228.

70- البكري، المسالك الممالك، ج: 2، ص: 249.

71- عبد الكريم جودت، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، د.ط، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1985، ص: 384.

72- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 83.

73- محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية، ص: 148-149.

74- ابن الصغير، تاريخ الأئمة، ص: 53.

75- نفسه، ص: 53. عبد الكريم جودت، العلاقات الخارجية، ص: 385.

العجم وقبائل نفوسة، كما رخص بنو رستم للداخلين على عاصمتهم حق البناء كجند إفريقية⁷⁶.

- المساكن الخاصة: كانت تسمى "بالدار"؛ اتسمت المنازل التاهرتية بالبساطة من حيث البناء والتزيين وحتى الأثاث فأغلبها بني بالطوب وأخرى بالحجارة المنحوتة، أما سقفها فكانت من الخشب كبنت الإمام يعقوب بن الأفلح، ويتكون المنزل الواحد من عدة حجرات، أما عن أفرشتها فكانت من الحصر المخط بالجلد، ومن بين أثاثها الموائد مُعدة أساساً للأكل⁷⁷.

أما عن مسافة التباعد بينها فأغلبها ما كانت متلاصقة ببعضها لتشكل أحياء تسكنها أعراق مختلفة⁷⁸، وتحاط بسور يشق الأزقة والشوارع يؤدي إلى الساحة العامة والأسواق وأبواب المدينة، أما بابها فكان يصنع من الخشب ويتكون عادة من مصراعين يسمح بدخول الأحمال⁷⁹.

- الحصون والقلاع: بُنيت هذه الأخيرة للضرورة الدفاعية وحماية العاصمة السياسية وانتشرت بانتشار ضروب الإباضية يلتجئون إليها في حالة تعرضهم لهجوم خارجي، وكانت على نوعين خاصة بالبيت الرستمي كحصن "تماليت" في طريق لواته والواقع نهر مينة، يصون أموالهم وكراع مواشيهم ودوابهم، وأخرى للمنفعة العامة كحصن "لواته" وحصن "تالغمت"⁸⁰ خارج المدينة، و"حصن برقجانة"⁸¹ المعروف بتيهت القديمة.

وفيما يخص الحديث عن القلاع فقد كانت منتشرة في سائر مدن المغرب الأوسط كقلعة "ابن الهرب" وقلعة "مغيلة"⁸²، لم تكن الدولة وحدها من تهتم ببنائها فيذكر أن العرب والجنود شرعوا في بنائها بعد أن داهمتهم قبائل نفوسة قرب النهر الصغير وعلى حد ما شاهده ابن الصغير الحادثة أن البنائين يبنون والنبيل والرماح تصيبهم حتى أموه⁸³.

76- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 56.

77- نفسه، ص: 29.

78- إنَّ دليل حكمنا راجع إلى ما أشار له ابن الصغير في النص التالي: "حتى لا ترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي". ينظر: نفسه، ص: 35.

79- نفسه، ص: 84.

80- نفسه، ص: 94.

81- نفسه، ص: 67، البكري، المسالك الممالك، ج: 2، ص: 249.

82- ابن الصغير، تاريخ الأئمة، ص: 33، 45، 54، 67.

83- نفسه، ص: 72-73.

- الأبواب والأسوار: اهتم بنو رستم ببناء الأبواب للمدينة لحمايتها أولاً وتنظيم حركة سيرها ثانياً فكل باب خصص لأمر ما، كالذين جاءوا من المدينة لملاقاة عبد الرحمن بن رستم فأدخلوهم من باب الصفا⁸⁴ وكانت دار هذا الأخير بجواره⁸⁵، وبالنسبة للأسوار فهي الأخرى لاقت اهتماماً واسعاً في العصر الوسيط وغالباً ما تبنى لادعاء الحاجة الملحة لها، أما في بوادي تاهرت فقد بنيت بغرض حماية الممتلكات؛ حيث يحيط الرجل بممتلكاته بسور كي لا يتعدون عليها وتجمع بساتينه وكراعه وتحفظ ماله وحدوده تبنى بالحجارة وتتوسطها أبواب⁸⁶.

وفي نهاية هذا العنصر ما يجب التنويه به أن تاهرت لم تقتصر على هذا الطابع المعماري فقط؛ بل اشتملت على الساحات العمومية المزيّنة لتعطي نظرة جمالية تعكس بساطة المنطقة والمذهب⁸⁷، وعلى الأسواق أيضاً فلما كانت تاهرت عامرة بالتجارة فمن الضروري أن تركز على الأسواق تدار فيها السلع⁸⁸ وكانت كثيرة لا تعد ولا تحصى لدرجة أنها بنيت على نوعين، منها ما بني بالمال الخاص والآخر بالمال العام، كابن وردة الذي ابتنى سوقاً وسمي باسمه دخلته وجوه العجم وسائر الأجناس الأخرى⁸⁹، علاوة على اهتمامهم ببناء المنتزهات للترفيه على أنفسهم⁹⁰، كما يمكننا إضافة الأهرء كجانب من الجوانب العمرانية التي تشير إلى آثار العصر الرستمي خُبات فيها الحنطة والطعام وحسب نص ابن الصغير⁹¹ أن الإمام هو من كان ينبههم لها وحرص على اتخاذها لتقيهم من الجوع يوم الشدة،

الخاتمة:

إن نوعية المعلومات التي يزخر بها مؤلف بن الصغير متنوعة لذلك ارتأينا دراسة بعض الجوانب التي لم تتطرق لها الدراسات من قبل؛ فما درس كان في الجانب السياسي

84- باب الصفا: يعد من بين الأبواب الرئيسية للعاصمة تاهرت على حد قول البكري: "ومدينة تاهرت مسورة لها أربعة أبواب: باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن" ينظر: البكري، المسالك والممالك، ج: 2، ص: 248.

85- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 29.

86- نفسه، ص: 33.

87- نفسه، ص: 88.

88- ذكر البكري: "وتبيهرت أسواق عامرة". ينظر: البكري، المسالك والممالك، ج: 2، ص: 249.

89- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 56.

90- نفسه، ص: 66.

91- يقول ابن الصغير: "وأمرهم عبد الرحمن بإحصاء ما في الأهرء من طعام". ينظر: نفسه، ص: 36.

بقوة لذلك كان بحثنا بعنوان: "قراءة في الجانب الثقافي والعمراني لتاهرت من خلال كتاب ابن الصغير المالكي"، وخرجنا بعدة نتائج:

يُعد ابن الصغير المالكي أحد المؤرخين الذين عاصروا الدولة الرستمية؛ حيث عاش في كنفها واحتفظ لنا بجملة من أخبارها إلا أننا لا نملك المعلومات الكافية التي نزيل بها لثام السؤال عن حياته وكذا مذهبه، ومع ذلك يعد سبيلنا الوحيد لقراءة تاريخ منطقة تاهرت بين القرنين 2-3هـ/8-9م؛ ويعتبر كتابه أقدم وثيقة متعلقة بتاريخها.

إنَّ أكثر ما كتبه ابن الصغير خصَّ به الجانب السياسي فقط مع إشارات قليلة إلى الجوانب الحضارية الأخرى وعلى رأسها الجانب الثقافي فنجد مثلاً أنَّ الأئمة ساهموا بشكل واسع في الاهتمام بالعلم وتقدير منزلة العلماء، وقد تجلَّى ذلك واضحاً من خلال بنائهم للمساجد واتخاذها دوراً للتعليم، وتعمير المكتبات بشراء الكتب النفيسة، حتى غدت تاهرت منارة ثقافية قصدها العلماء من مختلف الأقطار، أمَّا الجانب العمراني فهو الآخر شهد اهتماماً واسعاً فتزينت تاهرت بمختلف الطوايع العمرانية التي جعلتها محل إعجاب متمثلة في القصور البهية والمساجد المزخرفة وغيرها من الأبنية ذات البصمة الرستمية الإباضية التي لم تشهدها بلاد المغرب الأوسط ولا العاصمة تاهرت قبلاً.

قائمة المراجع:

- 1- الباروني سليمان باشا، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضي، د.م.
- 2- البكري أبي عبيد الله، المسالك والممالك، تح: جمال طلبة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2003.
- 3- //، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. مصر: دار الكتاب، د.ط، د.س.
- 4- جودت عبد الكريم، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، الجزائر: المؤسسة الوطنية، د.ط، 1985.
- 5- الحريري محمد عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس، الكويت: دار القلم، ط3: 1987.
- 6- الحموي شهاب الدين ياقوت، معجم البلدان، ج:2، بيروت: دار صادر، د.ط، 1998.
- 7- ابن الخطيب لسان الدين، رقم الحلل في نظم الدول، تونس: المطبعة العمومية، د.ط، 1987.
- 8- ابن خلدون عبد الرحمن، المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج:6، مر: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، ط1: 2001.
- 9- دبوب محمد علي، تاريخ المغرب الكبير. ج:3، د.ب: د.د، 2010.
- 10- الشماخي أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، السير، الجزائر: دار الأبحاث، د.ط، 2001.
- 11- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج:1، تح: ج س كولان وليفي بروفنصال، بيروت: دار الثقافة، ط3: 1983.
- 12- عمارة محمد، تيارات الفكر الإسلامي، مصر: دار الشروق، ط:2، 1418.

- 13- القاضي وداد، "ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية"، مجلة الأصالة، مجلة علمية محكمة تصدر عن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر، ع:45، 1975.
- 14- المالكي ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تح: ابراهيم بحاز محمد ناصر، د.ب: جمعية التراث، د.ط، د.س.
- 15- محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، المغرب: دار الثقافة، د.ط، 1985.
- 16- مطهري فاطمة، "دور أئمة تيهرت الرستمية في تشجيع وتطوير الحركة الفكرية خاصة العلوم الدينية"، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز الحكمة، م:1، ع:1، 2013.
- 17- المقدسي محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لندن: مطبعة بريل، د.ط، 1877.
- 18- اليعقوبي أحمد بن أبي الوضاح، البلدان، د.د، مطبعة لندن، 1890.